توثيق المأثورات الشعبية والثورة الرقمية

وحدود الإبداع الشعبي

الأستاذ الدكتور/ محمد عباس إبراهيم

أستاذ الأنثروبولوجيا بكلية الآداب

جامعة الإسكندرية

مقدمة

المأثور والقضايا النقاشية

الموروث الشعبي والثقافة

تكاملية البحث في موروث الثقافة

الجمع الإثنوجرافي والمأثور الشعبي

من الجمع الشفاهي إلي التوثيق الرقمي

لغة التوثيق والثورة الرقمية

الموروث الشعبي ... صيانته وتوثيقه

المأثور الشعبي في مصر .. الاهتمامات

الثورة الرقمية وحدود الإبداع

خاتمة

مقدمـــة

المأثورات الشعبية ، الفولكلور ، التراث الشعبي ، التراث الحضاري ، الثقافة والتنوع الثقافي ، الثقافات الفرعية ، حيوية الثقافة ، أشكال التعبير ، التوثيق والأرشفة والثورة الرقمية ، وحدود الإبداع الشعبي ، وحفظ عناصر الموروث وصيانته وترميمه ... وغير ذلك . قضايا هامة موضوعية ومنهجية تستلهم ذاكرة الشعوب وتوقظها من غفلتها ؟ لاسيما في خضم التطور والتغير الاجتماعي والثقافي العنيف الناجم عن الابتكار التقني الرقمي أو الثورات الشعبية الجامحة ، مثلما حدث في بلدان الربيع العربي . نجد حافظة الموروث في مأزق !! وفضاء الإبداع جاء إليه وأسرع الخطى من يقيد انطلاقته وحرية أدائه (مثل ما حدث في : جبلاية التنوير الثقافي المصرية في عهد وزير ثقافة مرسي العياط !!؟ وهو مثال من واقع اليم !!؟) .

فالتراث والمأثور والثقافة هي أعمدة الحياة وروح البقاء لأي شعب من الشعوب مهما كانت درجة تقدمه أو تأخره أو حتى تخلفه عن ركب إبداعات الثقافة الشعبية . هي العناصر المتناقلة من جيل إلي جيل آخر .. منها الشفاهي (في الحكاية والموال والحِداء والزجل والشعر النبطي والأغاني والرثاء وغيرها) ومنها المادي في الموروث الحضاري الخاص بإبداعات الشعوب مهما صغر حجم محلياتها أو نمت وكبرت حجماً وشعباً قامةً وقيمة (كمصر والهند والصين على سبيل المثال لا الحصر) وهكذا تكون روافد إمداد المأثور الشعبي وحيويته وحدود الإبداع فيه نابعة من بيئتين شعبيتين هما البيئة التقليدية (في البداوة والفلاحة) والبيئة الحضرية بشتى دوائرها المختلفة .

وقد شغلت قضية الموروث في المأثور الشعبي أذهان الكثيرين من الباحثين والمهتمين وحفظة التراث من العامليين المجاهدين في مجال حفظه وصونه من الاندثار ونقله وتسليمه إلي الأجيال التالية . وقد جاءت قضايا الموروث من المأثور موضوعاً ومنهجاً في كثير من مقررات وبرامج واهتمامات مراكز البحوث والجامعات والمؤسسات الثقافية ، لأن في حفظها حفاظ على الروح (الوطنية) للشعب . ...

ولكن ... هل قامت تلك المؤسسات بوظيفة دورها كما ينبغي في تسجيل الموروث من المأثور وحفظه ودراسته وتحليله وتفسيره ؟ أم أن الموروث من المأثور في موضوعه ووظائفه أكبر وأعظم وأعمق من أن يكون موضوعاً بحثياً أو تعليمياً واحداً ؟ .. ويترتب على ما سبق تساؤل آخر .. مؤداه : كيف السبيل إلي إيجاد تكامل معرفي بين العلوم التخصصية البينية في الآداب والعلوم الاجتماعية والأنثروبولوجيا والتاريخ والثقافة من أجل جمع الموروث وحفظه وأرشفته رغم ما يوجد من جهود مؤسسية وفردية في هذا المجال ؟

المأثور والقضايا النقاشية

وتأتي هذه الورقة المقدمة إلي مؤتمر : الملتقى الدولي للمأثورات الشعبية ، المأثورات الشعبية والتنوع الثقافي بالتعاون مع الجمعية المصرية للمأثورات الشعبية وأرشيف الحياة والمأثورات الشعبية

والمنعقد في الفترة من ١٥ – ١٧ ديسمبر ٢٠١٤ م بالقاهرة كورقة نقاشية جاءت بعنوان " توثيق المأثورات الشعبية والثورة الرقمية وحدود الإبداع الشعبي " لتطرح قضايا النقاش التالية :

- الموروث الشعبي والثقافة وتكاملية البحث في المأثور .
- الجمع الإثنوجرافي و المأثور الشعبي .
- تراجع الحوار حول الماضي في خزانة الموروث من المأثور .. وما علاقة ذلك بما يطلق عليه ... تجاوزاً الموروث النازل !! .
- طرائق التوثيق : اليدوية ، التقليدية ، التكنولوجية ، الإلكترونية ، الرقمية .. والنظرة إلي طرق للتوثيق أسرع خطى .
- المأثور الشعبي .. وحدود الإبداع الشعبي .. والعنف الديني !!
- من التوثيق الشفاهي إلي التوثيق الرقمي .
- كيف السبيل إلي إعادة صناعة وصياغة الموروث من المأثور والتسويق الثقافي ؟
- المأثور الشعبي والثورة الرقمية .

تلك قضايا وتساؤلات أصبحت تفرض نفسها على ساحة البحث العلمي في مجال حفظ الموروث وصيانته ، حيث أصبح الموروث الشعبي في ظل العولمة الإلكترونية الكونية يحتاج إلي جهود مضنية من جانب الباحثين الوطنيين ومراكز البحوث المتخصصة ، وكانت الثقافات المادية قد حظيت بالحظ الأوفر في العناية والرعاية والاهتمام لما لها من جوانب تطبيقية تسويقية ملموسة يكون العائد من ورائها في ناتج أسرع مادياً وحضارياً في الحفظ والأرشفة ، كما تقوم الثقافة المادية بدور في تنمية الاقتصاد الوطني ، وإسهامها في النهوض بتنمية الكوادر والموارد البشرية المتخصصة .. وهنا يلعب الموروث الشعبي دوراً مهماً في الدخول إلي عالم " التسويق الثقافي " والانتقال من بلد إلي بلد آخر ، ومن شعب إلي شعب آخر ، وهو الأمر الذي يجعلنا في مصر ننظر بجدية إلي موروثاتنا الثقافية الشعبية لما تتميز به من عمق حضاري وتراث إنساني متفرد يكاد يكون لا مثيل له عالمياً وإنسانياً . صحيح أن هناك صعوبات ومعوقات في الإمكانيات والموارد البشرية مثل القوى الخبيرة المدربة ، والمقومات المادية في التكنولوجيا وفي ابسطها توفر وسائل الانتقال الجيد إلي حيث يوجد التراث الثقافي ، والوسائل الإلكترونية والرقمية في الجمع والتصنيف والأرشفة والتوثيق ، وإعادة صناعة التراث لتسويقه بما يتمشى وطبيعة الثقافات والشعوب الأخرى .. فكل هذا يعد من الصعوبات بل المعوقات التي تقف حائلاً في بلادنا لتحقيق ما يصبوا إلي تحقيقه المخلصون في هذا المجال ، وهي معوقات لا يستثنى منها أحد على المستويين الشعبي والرسمي .

فنحن في حاجة إلي تجربة مصرية جادة تتعامل مع طبيعة المأثورات الشعبية على المستويين المعنوي والمادي وإخراجهما من جديد في ثوبهما التقليدي بنماذج تطبيقية . ولنا في الصين وتجربتها

الاقتصادية في التعامل مع الموروث – لا المحلي الخاص بها فقط بل العالمي من ثقافات شعوب أخرى – في ظل العولمة ، حيث استخلصت الصين بواسطة خبرائها بعض الجوانب المرتبطة بالمأثور الشعبي في الاحتفالات وفي جوانب الاعتقاد لبعض الدول والشعوب وبنت على أساسها نماذج فولكلورية وموروثات شعبية ، جلبت لها وتجلب مليارات الدولارات للصين فضلاً عن تنميتها لمواردها البشرية من خلال التوسع في مجال الصناعات الصغيرة المدرة للربح المادي في اقصر وقت زمني .. وذلك على حساب دول لم تستثمر تراثها الحضاري الثقافي الاستثمار الأفضل حتى الآن (١) .

كل هذا يحدث ونحن نعيش في عالم كوني تمتلك فيه الدول الصناعية المتقدمة ٩٧ % من الامتيازات العالمية و ٨٠ % من أوجه ومجالات عائدات الاستثمار في الدول النامية يذهب إلي الدول الصناعية الغنية ، بل من الأضحوكة و السخرية أن ثروة ثلاثة أغنياء من أغنياء العالم .. هو ما يساوي الناتج المحلي ل ٤٨ دولة في العالم ، بل والأنكى من ذلك أن المساعدات التي تقدمها الأمم المتحدة للدول الفقيرة تساوي ما تنفقه ٩ بلدان متقدمة على غذاء القطط والكلاب في ستة أيام فقط (٢) .

الموروث والثقافة

أدى الاهتمام بالثقافة من جانب بعض الإثنولوجيين والأنثروبولوجيين إلي صياغة وتشكيل وتشييد " نظرية للثقافة **Theory of Culture** " بموجبها وعلى أساسها يمكن تفسير العلاقة بين الثقافة وأنماط السلوك الإنساني في المجتمعات المحلية ومن بين هؤلاء برونيسلاف مالينوفسكي **B. Malinowski** ونظريته في الثقافة (٣) والتي تقوم أساساً على الحاجات الأساسية والاحتمالات المتعددة والمتنوعة لأعضائها وإشباعها مع الاهتمام بوجه خاص بالجانب الوظيفي الذي يميز ظاهرة الثقافة في كل مجتمع ، فالثقافة في أي مجتمع _ في نظر مالينوفسكي _ هي مجموعة كبيرة من الوسائل المادية وغير المادية التي تعين الشخص على مواجهة ومعالجة المشاكل التي تقابله في الحياة ، وتلك المشكلات تبدأ برغبة الإنسان في تحقيق وإشباع حاجاته الأساسية كالطعام والإشباع الجنسي والوقاية من الأخطار وغيرها من الحاجات الضرورية والثانوية التي لا يمكن أن تتحقق إلا في بيئة الثقافة ذات الاستمرار والدوام والتجديد والطرق والممارسات المرعية ذات المعايير الخاصة التي تجعل التقاليد والأعراف الثقافية تنتقل من جيل إلي جيل آخر عن طريق وسائل التربية المحددة والمقننة بمجموعة من النظم والقوانين والمعايير المحلية .

بهذا المدخل وتلك الرؤية النظرية من جانب مالينوفسكي تصبح العادات الاجتماعية وممارسات الحياة اليومية بمثابة نماذج مثالية ينبغي على أعضاء المجتمعات المحلية أن يأخذوا بها ويمتثلوا لقوانينها ولقوتها ، وأن يتكيفوا معها ، وأن يكون للمعايير الخاصة بالثقافة القدرة على حفظ رمزيتها . وهو ما ينطبق على الموروث من المأثور الشعبي الحي الذي لا يزال يقوم بدوره ووظائفه في الحياة اليومية للمجتمع ، حيث يؤدي دوره من خلال الممارسين فعلاً واقعياً ورمزاً مجرداً ، يبقى في ذاكرة العقل الجمعي للأفراد والجماعات الذين يعيشون في مجتمعات محلية منظمة ويشتركون معاً في ثقافة معينة ، وفي موروث

حضاري وتراثي وشعبي معين ، فتجعلهم يميلون إلي أداء الأفعال بطريقة جماعية ، ومن هنا تتحقق وحدة التشابه والتماثل بين أعضاء الثقافة لتميزهم عن غيرهم من الغرباء عنها .

تكاملية البحث في موروث الثقافة

ربما يبدو للوهلة الأولى أن هناك ما يوحي به هذا العنوان الفرعي من أن هناك اختلافات وربما تطابقات في ما يتعلق بالرؤى البحثية في المأثورات المتوارثة بعناصرها المختلفة والتي هي في حد ذاتها عناصر للتراث الشعبي **Folk Tradition** في عموميته ، أما التراث نفسه بعناصره المختلفة فهو عناصر الثقافة **Culture** التي تتناقل من جيل إلي جيل آخر في مضامين مادية وشفاهية ذات مضامين شعبية ، وفي هذا الإطار قد حدد أحد علماء الأنثروبولوجيا ميلفل هيرسكوفيتز **M. Herskovits** رؤيته للتراث بأنه مرادف للثقافة إلا أن استخدام مفهوم التراث يشير إلي مضامين مختلفة ، وصفات مختلفة ، للسلوك الإنساني الاعتيادي .

بمعنى آخر ينظر بعض الأنثروبولوجيين لاسيما الأمريكيون منهم ممن لهم خلفيات في البحوث الأثرية **Archaeological Studies** فيلبس فيلبس وجورج ويللي **Philips,Ph & Willy G.R.** إلي التراث بأنه " شكل من أشكال المخزون الثقافي يتناقل عبر الأجيال الاجتماعية وله القدرة على الصمود عبر الزمن " (٤) . وإن كان هذا التعريف لا يجد قبولاً في البحوث الإثنولوجية التي يميل أصحابها إلي تعريف التراث بأنه " خصائص بشرية عميقة الجذور ثابتة لها طرق في الأداء ، ولها القدرة على الانتقال من جيل إلي آخر " .

فالتراث هو عبارة عن " أسلوب مميز يتقن أدائه الناس من سكان المجتمعات الأصلية ويعتمد أسلوباً أو نمطاً من أساليب الحياة ، ويكون متغلغلاً في كافة العناصر والمجالات المختلفة للثقافة ، ولديه القدرة على الصمود عبر الزمن ، وإن لاحقته في فترات معينة بعض التغيرات الثقافية الداخلية يكون له القدرة على استيعابها في ضوء ما يتميز به التراث من وحدة أساسية قابلة للتغيير ولكنها ليست قابلة للفناء أو العدم " . هذا التعريف يعد قريباً بل ملاصقاً ومتاخماً لمنطقة مفهوم الثقافة ، فهو يتضمن بعداً حضارياً ، وأساليب سلوكية ورؤية للتكامل يحمل مضامين شفاهية ، كما يحمل مضامين مادية . إضافة إلي استمرارية وحدته عبر الزمن وقدرته على الانتقال من جيل إلي جيل آخر .

وهناك من يرى أن التراث ما هو إلا التراث الشفاهي **Oral Tradition** ، والتراث الشعبي والرواية الشفاهية الشعبية . وهناك من يرى في التراث روافد أساسية في :

١- التراث الاجتماعي .

٢- التراث النشوئي أو التكويني **Genetic** وهو مستمد ومكمل ومتفاعل مع التراث الاجتماعي من أجل إضافات لعناصر جديدة للتراث والموروث الاجتماعي .

٣- التراث الثقافي (الحضاري) المادي الذي تحويه خزانة التراث من الموروثات الثقافية المادية ، وهي منتجات موروثة ومنتجات مضافة .

٤- الموروثات من المأثور في الثقافة الشعبية (الأدبية) من الحكايات والشعر والزجل والموسيقى والغناء والموال .... وغيرها .

فمن المؤكد أن حالة التراث الشعبي ، أو الموروثات الشعبية ، أو المأثورات الشعبية (الفولكلور) أو التراث الشفاهي ، تعيش حالة مكانية وزمنية في آن واحد ، لتمثل الوحدة الكلية المشتركة لأبعاد مكانية وزمنية لثقافة أو ثقافات فرعية ، وهو ما عبر عنه جورج ويللي G. willy بزمن استمرارية الثقافة داخل حدود منطقة من المناطق ، فتظهر خلالها مجموعة من الخصائص والروابط الفرعية فيما بين الثقافة والإقليم ، أو بين الثقافات والأقاليم ، فتشكل كلاً متكاملاً مترابطاً ملتصقاً بحدود المكان والزمان ، ولكنه ليس كلاً ثقافياً ثابتاً أو جامداً وإنما هو كيان يتأثر بعوامل التغير الثقافي تياراته المختلفة .

أما عن مفهوم الثقافة Culture ومدى أهمية وشيوع استخدامه لاسيما في الدراسات الإثنولوجية والأنثروبولوجية فقد تحدد صياغة للمفهوم _ الثقافة _ منذ عام ١٨٧١م على يد البريطاني الشهير إدوارد بيرنت تايلور E.B.Tylor في كتابه المكون من جزئين بعنوان الثقافة البدائية Primitive Culture ويعتبر بحق أول محاولة أسهمت في تعريف الثقافة أو الحضارة بأنها " ذلك الكل المركب أو المعقد الذي يشمل المعرفة والمعتقدات والفنون والقانون والأخلاق والعادات والعرف وكافة القدرات والأشياء الأخرى التي تؤدى من جانب الإنسان باعتباره عضواً في المجتمع (٥)

وفي محاولة مشتركة قدم كل من كلايد كلاكهوهن C. Kluckhohn والفريد كرويبر Alfred Kroeber تحليلاً لمفهوم الثقافة الذي حوى رصد وتجميع أكثر من ستمائة تعريف للثقافة ، وانتهيا إلي أن " الثقافة هي الأساس الجوهري الذي تقوم عليه الأنثروبولوجيا في دراساتها " ، وأن الاهتمام بمفهوم الثقافة من شأنه أن يساعد في تشييد نظرية علمية متكاملة لدراسة الإنسان والمجتمع (٦) . كما قدمت أودري ريتشارد Audry Richard تحليلاً لمفهوم الثقافة من خلال مقالها المعروف " مفهوم الثقافة في أعمال مالينوفسكي The Concept Of Culture in Malinowski,s Work وأنها نجحت من خلال عرضها بأن مالينوفسكي قدم فكرة طيبة لمفهوم الثقافة ، ومعناها ، وذلك عند تعريفه للثقافة عام ١٩٣١م " بأنها تشمل المهارات الموروثة والأشياء والأساليب والعمليات الفنية والأفكار والعادات والقيم (٧) . وبهذا التعريف أدخل مالينوفسكي مفهوم الثقافة إلي الدراسات الاجتماعية عندما أشار إلي كلمة " العادات " ضمن تعريفه للمضمون الثقافي .

والثقافة في عموميتها تتضمن كافة الميراث أو الموروث وحاملو أو ناقلو الثقافة والأنماط العامة أو المشتركة ، والاستمرارية ، أو الثبات ، وخلق النماذج المستحدثة ، والانتشار والعلاقات البنائية الدينامية، والجماعات المرجعية ، والعادات ، وكافة متضمنات الثقافة من اللغة والمعرفة وكل المشاركين في عمليات الاكتساب والمعاني الرمزية الثقافية المتناقلة .

وفي ضوء ما سبق فإن مضمون الثقافة يشمل ويشير إلي كافة القدرات والوسائل والمهارات والسلوك والعادات والمعرفة والفن واللغة والعلم والفكر المتناقل والفلسفة والأفكار والعمليات الإدراكية وآداب السلوك والأخلاق والذوق الاجتماعي والدساتير والقواعد والعرف التقليدي ومنتجات النشاط

الإنساني والكتب والمباني وسلع الاستهلاك والوسائل والمخترعات والنقوش والأدوات والمأوى والأواني والأسلحة والإرث الاجتماعي والنظم الاجتماعية والقيم والمثاليات والمحتويات وطرق التفكير في الحياة وفي العمل وفي الشعور والأحاسيس وكافة الأنساق المرتبطة بالتفكير والمعرفة (٨) .

ويؤكد كل من الفريد كروبير وكلايد كلاكهوهن (٩) على أهمية تلك المسوح لأن لها فعاليتها في تحديد معنى الثقافة ، كما أن تلك المسوح تتميز بصفة الاكتساب وترتكز بصورة أساسية على الرموز Symbols والتجريد Abstraction للسلوك الإنساني ، ولهذا يشكل مفهوم الثقافة في حد ذاته أحد الأفكار الرئيسية التي ساعدت البشرية على تحقيق الكثير من جوانب التقدم والتطور والرقي الاجتماعي .

وهكذا فإن الثقافة في معناها العام هي أساليب الحياة التي تنتشر في كافة المجتمعات الإنسانية خلال فترة زمنية محددة مع الأخذ في الاعتبار ألا نخلط بين الثقافة كمفهوم تجريدي للسلوك ، وبين الأنشطة والأفعال الفردية المادية والتي جاءت في صور مصنعة نتيجة لأنماط معينة من السلوك الإنساني .

الجمع الإثنوجرافي والمأثور الشعبي

اعتمد البحث الإثنوجرافى على منهج الملاحظة المباشرة أو المشاركة في الظاهرة العلمية، و كان يتطلب هذا من الباحث أن يقوم بتوثيق مادته وكتابة ما لاحظه وشارك فيه من خلال التعبير بالكلمة. وكان هذا الأسلوب – وحده – يحتمل فيه الخطأ أو نسيان بعض التفاصيل التي حدثت في موقف ما، ومن ثم فإن توصيف المادة قد يأتي منقوصاً. ومع ظهور التقنيات الحديثة ظهرت أدوات ساعدت الباحث على التوثيق العلمي أكثر دقة، ومن بين هذه الأدوات الكاميرا والمسجل. وهاتان الأداتان ساهمتا في تقدم وتطور البحث العلمي الإثنوجرافي عامة. ومع تطور الكاميرات من الكاميرا التقليدية إلى الرقمية.. انتقل البحث الإثنوجرافى نقلة جديدة مكنت الباحث في مجال الدراسات الميدانية من توثيق ما يقوم بتصويره مباشرة دون انتظار المراحل التقليدية المرتبطة بتحميض الفيلم وطبعه، ثم محاولة تذكر سياق الصورة لتوثيقها. فبعد أن كان الجامع الميداني يقوم بتصوير مادته بالفيلم التقليدي ، وينتظر العودة من الميدان لتحميضه وطبعه. أصبح الآن يستخدم الكاميرا الرقمية Digital التي تمكنه من رؤية المادة المصورة في الحال، بل تمكنه من حذف بعض الصور – غير الصالحة – التي يرى عدم جدواها، أو التي جاءت في مستوى تقنى متواضع. كما تمكنه من حفظ ما تم تصويره على الكمبيوتر المحمول Lap Top و ونظام برامج الوااتس آب WhatsApp و الإنستوجرام Instgram وتفريغ الكاميرا لالتقاط صور جديدة. والواقع أن رؤية الصورة في ميدان البحث الميداني لها عدة مزايا أخرى لعل من بينها اطلاع الإخباري على هذه الصور مما يحفزه على مساعدة الباحث على التقاط المزيد منها. غير أننا قد وظفنا هذه الخاصية – التعرف على الصور في الميدان – توظيفاً توثيقياً إن صح التعبير خلال أبحاثنا الميدانية في السنوات الماضية، فبعد تفريغ ما تم التقاطه من صور على الكمبيوتر المحمول، نقوم بمقابلة الإخباريين مرة أخرى لتوصيف تلك الصور بأنفسهم وشرح مكوناتها، من خلال تسجيل صوتي نشير فيه لرقم الصورة ثم شرح الإخباري لها. ومن ثم ينتج لدينا مصادر معلومات موثقة ومتكاملة من الميدان حول

كل صورة تم التقاطها، ثم نشرع بعد ذلك في استخلاص تلك المعلومات على نحو ما شرحناه في الجزء الخاص باستخلاص المادة المدونة.

أما المسجل الرقمي فقد أصبح يستوعب عشرات الساعات ، على خلاف المسجل العادي الذي كان يتطلب شريطاً عادياً يسجل لنا ساعتين على أقصى تقدير. ومع ظهور الحاسب الآلي بشكله المتطور منتصف التسعينات ، وكذا الحواسب المحمولة ، أصبح الباحث الإثنوجرافي يمتلك مجموعة من الأدوات التي تمكنه من رصد الظواهر وتوثيقها من أصحابها في الميدان قبل أن يعود لمكتبه ليبدأ مرحلة التحليل العلمي فلم يعد هناك بحث بدون صورة شارحة أو فيلم ينقل لنا الميدان. كما اختلف شكل المحاضرة العلمية التي أصبحت لا تعتمد على الكلام المرسل بل أصبحت الشواهد الحية هي الشارحة للطالب أو الباحث . كما أصبحت هناك كليات ومناهج ومقررات متخصصة في توظيف الحاسب الآلي والتقنيات الحديثة في شتى المجالات ومن بينها الإثنوجرافيا . ولا نستطيع ممارسة البحث العلمي الآن بدون هذا التوظيف ، ولا نستطيع أن نتحدث عن ظاهرة بدون أن نعرض لها عن طريق تقنيات "الوسائط المتعددة" التي تقوم على مزج الكلمة والصوت والصورة والحركة في إطار واحد لعرض الظاهرة المزمع بحثها أو تقديمها أو عرضها تحت أية صورة من صور التقديم العلمي المنهجي .

أضف إلي ذلك أنه في ظل تقنيات المعلومات أصبح البحث المقارن في الدراسات الإثنوجرافية أكثر تطوراً ، إذ أن المواقع العلمية المتخصصة قد يسرت عملية التواصل بين الباحثين الإثنولوجيين على مستوى العالم . إذ أن الباحث الإثنولوجى لا يحتاج إلى السفر للقيام بدراسة مقارنة في موضوع مثل "عادات الزواج" أو "أدوات الزراعة"، أو "أغاني العمل" أو الأزياء"..إلخ بين مصر وغيرها من إحدى البلدان حيث أصبح الباحثون في المجال يتواصلون على شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت) بسهولة ويسر. وظهر عشرات الجمعيات ومراكز الأبحاث المتخصصة التي تدعم هذا الاتجاه . فالباحث يستطيع أن يطرح سؤالاً على زميله في أي من بلدان العالم يطلب منه معلومات حول أداة زراعية تشبه "النورج" أو "الشادوف".. أو يسأله عن مراحل عمل الفخار في بلده .. فيرسل له زميله أو المركز المناظر له كافة البيانات حول هذا العنصر أو ذاك.. ليقوم بعد ذلك بإجراء دراسته المقارنة. ومن نماذج هذه المؤسسات هناك "جمعية التقنيات القروية للمتوسط" التي تقوم بتبادل المعلومات الإثنوجرافية حول الأدوات المستخدمة في القرى الريفية في منطقة المتوسط. ومن ثم فإن الجمعية تهدف إلى محاولة الحفاظ على استمرارية تلك الأدوات وتداولها ، والتعرف على وظائفها قبل أن تختفي . والجمعية تأخذ على عاتقها دراسة بنية البحر الأبيض المتوسط بداية من بحث المعارف الموحدة وعرض ما يتعلق بها من عدة أوجه . كما تهدف إلى إنشاء وتكوين شبكة من الباحثين والخبراء من مختلف الاتجاهات للتطوع في مجال بحث التقنيات القروية للمتوسط للمساهمة في الحفاظ على التراث التقني القروي وإظهاره والتعريف به ، وإعادة تقديمه من قبل المؤسسات المعنية بحماية التراث المادي والمعنوي .

من الجمع الشعبي الشفاهي إلي التوثيق الرقمي

استقرت الأعراف والتقاليد والقوانين والدساتير الحديثة والمعاصرة على أن تحتفظ للمبدعين والمؤلفين والمؤدين بحقوقهم في التأليف والنشر والإبداع والأداء المباشر إلي جانب حق الأداء العلني وهي قواعد توثيقية وأرشيفية سارت عليها وتسير المجتمعات الحديثة والمعاصرة كي تحتفظ بحقوق أصحابها لفترات زمنية تطول أو تقصر بحسب القادرين على تحقيق النصوص الإلزامية ونشرها والدفاع عنها باعتبارها وثائق لعقد اجتماعي حافظاً للحقوق وملزماً لأداء الواجبات .

وفي توثيق المأثورات الشعبية (الفلكلور) مجتمعياً يكون الأمر مختلفاً عند البحث في أصول الفنون والإبداعات الشعبية في السير والأغاني والأهازيج والأشعار والموال والرثاء والحداد والأمثال وفي كافة فنون المأثور الشعبي معنوياً ومادياً، فالأمر جد ويحتاج إلى مجهودات غير عادية للوصول إلي " توثيق شعبي " يحمل وثيقة شعبية يوقع عليها المبدعون للإبداع ومبتكروه ومن توارث عنهم في تلك المجالات والروافد الثقافية الشعبية ، فالتراث الفكري والغني الذي يرد إلى أصحابة لا يمكن أن ينشر بغير تحقيق وهو ما يجعل المحققين والموثقين يبذلون أقصى الجهد وصولاً إلى توثيق عناصر التراث الشعبي شعبياً. ويظل التراث الشعبي وعناصر الموروث من المأثورات الشعبية قيد محنة البقاء مقابل محنة الزوال، والتي وصفت أبان ظهور نتائج الثورة الصناعية على الريف الأوروبي بما يسمى البقايا وشبكة الزوال من عناصر الموروث نظراً لاندثار بعض العناصر الشعبية التي ظلت تؤدي دورها لفترات طويلة من الزمن قبل مجئ مؤثرات الثورة الصناعية والتكنولوجيا وهو الأمر الذي شجع على القيام بسرعة المبادرة في تسجيل العادات والتقاليد والمعتقدات الشعبية السائدة في الريف الأوروبي آنذاك. فانتقلت مرحلة التوثيق لعناصر الموروث الشعبي من " التوثيق الشعبي " الي التوثيق المدون المنظم والمسجل في سجلات خاصة من الكتابة والتدوين الصورة والتسجيلات الصوتية والمرئية. وقد أصبح المدون من عناصر الموروث من التراث أو المأثورات الشعبية مادة موضوعية ومنهجية لكثير من الباحثين في مجالات العلم بمؤسساته المختلفة لاسيما للدارسين في تخصصات الأدب الشعبي والدراسات الانثروبولوجية خصوصاً أنثروبولوجيا الريف أو ما يسمى بأنثروبولوجيا المجتمعات القروية وبمسمى أخر هو فلكلور الريف، حيث تناولت تلك الدراسات ومازالت جوانب للعادات والمعتقدات والخرافات والسحر والشعوذة هي محل دراسة لتبيان مدى تأثيرها في المخيلة البشرية والعقل الجمعي رغم التقدم التكنولوجي صاحب التأثير العالي على سكان تلك المجتمعات والمنتمين والمنتسبين إلي تلك الثقافات، وهو ما تحدد على أساسه مفهوم " الشعب " الذي يدل على مستوى معين من الفكر والممارسة العملية حيثما وجد وأين ما وجد؟ وهو مستوى الفكر يمكن أن نجده في قمة الهرم الاجتماعي (طبقة الصفوة) وفي قاعدته لدى العامة على السواء حتى وإن غابت أو اتجهت الممارسات الفعلية الواقعية إلى زوال بين أهل القمة وأهل القاعدة وصاحبها وصاحب ممارساتها ألوان التفكك والانفراط، إلا أنها تظل منحسرة في أعماق من الذاكرة وتكمن من اللاوعي وتبقي جلية واضحة كلها أو بعضها لاسيما بين الريفيين في الوجود الاجتماعي.

وبما أن الموروث من المأثورات الشعبية لا ينقرض ولا يموت فالعادات والمعتقدات القديمة وإن ظن البعض أنها قد اختفت من الوجود الاجتماعي إلا أنها تظهر في أشكال وأنماط جديدة من الفكر ووسائل التعبير أي أنها تظهر في ثوب جديد وعباءة جديدة فيعبر المعتقد عن نفسه في شكل جديد، ومثال ذلك لا الحصر بعد أن كان " العفريت " أو الجن يسكن في الأماكن المهجورة أو المظلمة، أصبح الجن والعفريت يقيمون داخل المصانع والورش بل يقيمون داخل السيارات والقطارات والطائرات أين كانت تلك الوسائل (وسائل النقل) قد تعرضت لحوادث سير أفضت بحياة من استخدمها وأدت إلى موتهم قتلى وجرحى !! فدماء القتلى بحكم المعتقد الشعبي تحولت إلى أرواح للجن والعفاريت .

ولكن القضية الأكبر والأهم والتي زادت من أهمية الموروث من المأثور الشعبي هي تزايد الاهتمام من جانب الباحثين بالمأثورات الشعبية الشفاهية منها والمادية جنباً إلى جنب، فلم يعد الاهتمام موجه لرصد وتسجيل وأرشفة الآداب الشعرية والقصائد والزجل والحكم والأمثال والأقوال والمواويل والأهازيج وغيرها، وإنما أصبح الاهتمام موجهاً أيضاً نحو " المادي " من عناصر الموروث الشعبي كالأدوات المنزلية وأدوات الحياة اليومية المعيشية والزراعية وآلات الصيد وأدوات الحرب .. إلى غير ذلك (١٠) طالما أن تلك الأدوات المادية الشعبية لها صلة مباشرة ببعض المعتقدات والشعائر والفنون الحياتية الشعبية، فلم يعد الفلكلور هو " روح " والشعب كما قيل سابقاً، وإنما أصبح الفلكلور هو روح وجسد الشعب أي أن الحياة الشعبية هي كل متكامل من الجوانب الروحية والمادية حتى يمكننا التعرف على البنية الثقافية الشعبية وتراثها الشعبي لأي مجتمع من المجتمعات الإنسانية وتفسير مدى التغير الذي يحدث في حياة الناس ومنذ أهتم الفلكلوريون والانثروبولوجيون بالنظر إلى عناصر الموروث من المأثورات الشعبية على أنها روح ومادة فقد تزايدت الرغبة لدى مراكز البحوث والجامعات لإنشاء متاحف أنثروبولوجية ومتاحف شعبية جنباً إلي جنب مع متاحف العاديات والآثار بل وأصبح المتحفان كلاً متكاملاً: أنثروبولوجي وأثري يقدمان ما لديهما من معروضات جنباً إلى جنب في مكان واحد، ففي الوقت الذي يعرض فيه تمثال أو تجسيم من الحجر نجد إلي جواره صورة معلقة على أحد الجدران تصور أحدى الألعاب الشعبية وكيف تم رفعها وتسجيلها وتوثيقها في بطاقة متحفية يستدل منها على نشأة اللعبة المعروضة ومكان تواجدها وانتشارها وكل ما يتعلق بتاريخها الانثروبولوجي الشعبي وما كانت تؤديه ومازالت تلك اللعبة من وظائف اجتماعية، فالموروث من المأثورات الشعبية الفلكلورية لا يموت حتى وان أقتصر البحث في الكشف عن الرواسب والمخلفات في الثقافة الشعبية .

لغة التوثيق والثورة الرقمية

عند الحديث عن التوثيق الالكتروني والثورة الرقمية نجد أن الوسائل التقليدية في التوثيق والأرشفة فن الكتابة اليدوية (خط اليد) والمراجعة ثم الطباعة ثم التوزيع والحفظ. لم تعد قادرة على مسايرة ومجاراة الجديد من الانفجار المعرفي والثورة الرقمية، وحتى هي ذاتها (الطرق التقليدية) لم تعد مقبولة لدى المستفيدين من قواعد البيانات التقليدية. فالتوثيق الالكتروني في مجال الثورة الرقمية أصبح وسيلة سريعة لنقل المعرفة عبر قنوات الاتصال(الانترنت) وذات كثافة تخزينية عالية، وبتكلفة أقل في الجهد

والمال والوقت، والأهم من ذلك أنها أداة – تواصل وتخاطب وتبادل معرفي جديدة بين المجتمعات والثقافات– غير مسبوقة.

فالتوثيق الإلكتروني لعناصر الموروث الشعبي هو نموذج جديد ونمط جديد للتعلم والحياة يتطلب من المجتمعات والسياسات العامة تبديلاً كبيراً في وضعية القوانين والتشريعات في إطار مجتمعي إقليمي وعالمي من القيم يحفظ لكل ذي حق حقه في منتج الموروث الشعبي والترويج له ونشره عبر الشبكات العالمية .

وتعد الحالة التفاعلية **Interactive** بين توثيق الموروث والثورة الرقمية وما تقدمه لمجموعات المستفيدين **User Groups** من خلال الاستعانة بالتقنيات متعددة الطرائق **Multimedia** الإلكترونية عبر الأقمار الصناعية والألياف الضوئية فائقة السرعة حركة وتخزيناً. إلا أن هناك بعض التحديات الثقافية الهامة في الوسيلة الإنسانية (اللغة) وليست الآلة في الأجهزة الإلكترونية، فما يضفى على عملية التوثيق الالكتروني لعناصر الموروثات الشعبية نجاحاً وإبهاراً هو مدى استخدام (اللغة) التي يستعين بها الموثق على لوحة مفاتيح الكمبيوتر مردوداً بلغة برامج التدريب والبرمجيات ووسائل الاتصال والبحث والتخزين والنقل والتحرير والتوثيق والحفظ والأرشفة.

ورغم أهمية ومكانة اللغة الوطنية كأسلوب وطريقة للبحث والتوثيق الإلكتروني، إلا أن التنوع الثقافي والفكر سيفتح الباب على مصراعيه أمام شبكات المعلومات والمعارف العالمية وعناصر الموروثات الشعبية في محلياتها أو إقليميتها أو عالميتها، وهكذا من شأنه أن يضيف بعداً جديداً وغير مسبوق في التعامل بانفتاح وحرية غير مقيدة مع ثقافات العالم وباختصار لم يعد هناك للرقيب أو المخبر دور كما كان من قبل في ترشح (فلترة) المعلومات نيابة عن مجتمعه أو حكومته ، ولم يعد أيضاً دوره السابق ــ في التلصص عبر الفكر والتجسس على ما ينشر – مجديا ويرجع السبب في ذلك إلي أن التوثيق لم يعد قاصراً على استخدام أو الاستعانة بلغة واحدة دون غيرها، ورغم أن اللغة مازالت تأخذ موقع الصدارة في عصر المعلومات واقتصاديات المعرفة ومنها الموروث الثقافي الشعبي كسلعة ثقافية قابلة للتداول وإعادة الإنتاج المعرفي حوله (١١) .

جانب أخر فيما يتعلق بتوثيق عناصر الموروث الشعبي والتحديات التي تواجهه يتمثل في " حركة العولمة " التي تعني من بين ما تعني إسقاط الحواجز اللغوية كشرط أساسي لدمج بلدان العالم وثقافاته المختلفة في كيان عالمي يتسم بالشفافية اللغوية لتتناسب من خلالها المعلومات ويتفاعل من خلالها الأفراد والمؤسسات والجماعات والمؤسسات. واللغة العربية تحتاج في ظل التغيرات المجتمعية العالمية إلي توفر البني الأساسية التي تؤهلها للتفاعل اللغوي الحي مع لغات العالم الأخرى . فإذا كانت اللغات العالمية تساير وبانتظام مواكب التقدم التكنولوجي المعلوماتي لاسيما الإلكتروني، فإن اللغة العربية مطالبة أيضاً بمسايرة تلك التطورات والبرامج المعلوماتية العصرية في التدين والأرشفة والتوثيق، والسؤال الذي يطرح نفسه هنا ، ما السبيل إلى ذلك؟

أرى أن السبيل إلى رقي الأداء اللغوي للغة العربية أن تكون في سياق إعلامي ثقافي عربي حي ومتطور، له صفة الرقي والشمول تتجاور من خلاله اللغة العربية حيث الجماليات والفنون الأدبية والسجعيات والتباهي بمآثرها وخصائصها، أن تكون اللغة العربية وسيلة ثقافية لها دورها الاجتماعي والاقتصادي والثقافي، وأن تحتل موقعها داخل الخريطة الشاملة للغات العالمية في بنياتها ونظرياتها ونماذجها. مع ضرورة الاهتمام بالعلاقة التي تزداد وثوقاً يوماً بعد يوم بين اللسانيات وعلوم الحاسب. فاللسانيات بعد أن كان المنطوق يكتب ورقياً ثم يسجل الكترونياً ويعاد طبعه آلياً، أصبح النشر الإلكتروني متجاوزاً لما هو مطبوع بما هو فضائي. أضف إلى ذلك ما يتميز به النشر الإلكتروني لاسيما في التوثيق لعناصر الموروث الشعبي من خاصية الإيجاز والجذب والإبهار وتوصيل الغرض من توثيق المعلومة بأسلوب أكثر تبسيطاً وأكثر وضوحاً وأسهل طريقاً في الحصول عليه .

الموروث الشعبي .. صيانته وتوثيقه

الموروث الشعبي له رونقه وبريقه الأصيل عندما ينشأ وينمو ويزدهر في بيئته الأولى الحاضنة له إبداعاً وإنتاجاً وأداءً حيث تلتقي وحدة الإبداع في نبض الوجدان الفردي والجمعي بإيقاع واحد يعتصم بسمة الموروث ويلتف حولها من أجل الحفاظ عليها وصونها من العبث أو التدمير أو الهلاك، وهكذا يظل الموروث الشعبي بعناصره باقياً من خلال ما يحمله " الموثق " الشعبي لأمانة الحفاظ على تراثه في كافة أشكاله من الملاحم والسير والخطابات والأغاني والأدوات والآلات وما يصاحبها من عادات ومعتقدات وشعائر وغيرها هي في الأساس " حامية لهوية شعب " وكإطار رئيسي لتحديد مقومات الشخصية القومية.

وعليه يصبح الموروث الشعبي هو بمثابة ما ينتجه الإنسان الشعبي ويلتمسه في كل الخبرات والمعارف والقدرات التي يحصلها المرء من الظروف الاجتماعية التي يولد في كنفها أي أن الموروث الشعبي لا يحصل بالتلقين كالتعليم النظامي من جهة ، وأنه ليس خلقاً من العدم من جهة أخرى، إنما هو تطور لشئ موجود من قبل داخل البيئة التي يعيش فيها الإنسان ويردد ويمارس ويعدل فيها يقولون وفيما يتناقلون دون تدخل مقصود عن التعديل أو النقل (١٢) .

وعلى الرغم من أن عالم الإنسان مليئ بالموروثات الشعبية في شتى بقاع الأرض إلا أن الاهتمام بتدوين الموروث الشعبي " الفلكلور " لم يبدأ بصور منظمة إلا في منتصف القرن التاسع عشر عندما بدأ بعض الباحثين في بريطانيا في نشر أبحاثهم في الجرائد والمجلات وأهمها على وجه الخصوص الجريدة التي كانت تصدر بعنوان : ملاحظات وتساؤلات **Notes and Questions** وهي الجريدة التي أسسها **W.G. Thomas** في عام ١٨٤٩م، وفي عام ١٨٧٦م قام بنشر خطاب في ذات الجريدة يدعو فيه الي تكوين مؤسسه أو جمعية يقوم أعضائها بجمع وطبع عناصر الموروث الشعبي المبعثر هنا وهناك !!

فوجدت دعوته استجابة وأنشئت في لندن في عام ١٨٧٨م " جمعية الفولكلور " واختير و.ج. توماس رئيساً لها وكان الهدف من إنشاء تلك الجمعية هو سرعة الإمساك بخيوط الموروثات الشعبية المنبعثة من الخرافات الشعبية والأساطير والخطابات والأشعار الأولية ..الخ

والمعبرة عن حالة " الميثولوجيا البدائية " في بريطانيا وأيرلندا وقامت الجمعية بالفعل بنشر العديد من الأبحاث والكتب وأصبح لها دورية تحمل أسم الفولكلور **The Folklore** تصدر منذ فبراير ١٨٧٨م سنوياً ثم تحولت إلى ربع سنوية (فصلية).

وعلى غرار جمعية الفلكلور التي أنشئت في بريطانيا تأسست جمعيات مماثلة في كل من فرنسا وألمانيا وأسبانيا ورومانيا وتركيا وأمريكا الجنوبية، في عام ١٨٨٨م أسست الولايات المتحدة الأمريكية " جمعية المعهد السويدي " لأبحاث الفلكلور في استوكهولم وأهتم برصد اللهجات السويدية والفلكلور وأسلوب الحياة اليومية. ثم تأسست مدرسة الدراسات الأسكتلندية عام ١٩٥٢م وأصبحت جزء من جامعة أدنبرة وفي عام ١٩٥٩م بدأ العمل في معهد كوبنهاجن بالنرويج ليهتم بدراسة الآداب الشعبية والفلكلور في كل من الدانمارك وفنلندا والنرويج كما تأسست جمعية الفلكلور الايرلندي عام ١٩٢٦م وغيرها.وفي عام ١٩٣٠م أنشأت الحكومة الأيرلندية " معهد دراسات الفلكلور" ليهتم بكافة نماذج وعناصر الموروث الشعبي مادياً ومعنوياً .

وقد اتضحت فيه دراسة الموروث الشعبي دراسة علمية من خلال تحقيقه لقيم اقتصادية وسياسية وفكرية (تعليمية) في الموروث الحضاري والثقافة إلا أنها في نفس الوقت تعد مدخلاً لإظهار جوانب القدرات الإبداعية والعمل على إثرائها وتنميتها. فقيم الثقافة في التاريخ وتراكم الإبداع زمنياً والقيم الفنية وإدراك الهوية، والقيمة الرمزية ودلالات الخصوصية، والقيم المعلوماتية لما يفيض به المصدر التراثي من معلومات وبيانات اثنوجرافية وأثنولوجية، والتي كلما زاد مستوى المهتمين أو المستفيدين منها زادت قيمتها، فضلا عن القيم العليا في العلم والمثل والأخلاقيات والقيم الدينية ومدى علاقة أي شعب من الشعوب بها. ثم القيم الاجتماعية في المدلول الاقتصادي والتربوي والتنشئة التراثية وربطها بقيم العرقية والخصوصية ومدى علاقتها برؤى الحداثة والتصور والعصرنة في مركب شامل يجمع بين القديم الأصيل والحديث المضاف في عناصر الموروث . يمثل الموروث الشعبي حالة فريدة بين الأمم تحكي عظمة الإنسان عبر العصور وتثير غريزة الانتماء للأوطان كما تعم تلك الحالة الفريدة على استحضار الجانب المشرق في حياه الشعوب، وتجعلها تتطلع إلي مستقبل أكثر إشراقاً مستعينة في تلك النظرة بتوظيف هذا الإرث من التراث الإنساني.

ويشكل التراث الشعبي لكل أمة الأصول والذاكرة التي تتضمن مكونات رصيدها ومخزونها التاريخي الإنساني من الفنون والعلوم والآداب، فالموروث الشعبي له القدرة على صياغة الوجدان والهوية من تشكله في مراحله الأولى وهنا تتحدد على أساسه خصائص وسمات وميزات الثقافات القومية، وهي الخصائص والسمات التي تدعم نمو العلاقات الإنسانية بين الشعوب. فدراسة الموروث الشعبي تنطلق من عدة اعتبارات أخذة في الاعتبار احتواء عناصره الأساسية لمقومات الأمم والشعوب وتجاربها الخاصة

وخبراتها التراكمية فخبرات الأسلاف وتجاربهم تجدد الأفكار وتلهم الأجيال القادمة، فالاتصال والتواصل بماضي الأمة وروحها المتجلية في نتاج موروثها يعزز الاندفاع الايجابي الذي تتطلبه الحياة المعاصرة، فلا اقتباس لحد الذوبان، ولا انغلاق لحد الوقوع في الذاتية الضيقة.

وتعد قضية الموروث الشعبي من المسائل المطروحة وبشدة ، بعد أن عانت إهمالاً متعمداً بسبب واقع فكري هو في الأصل استعماري هدفه تهميش الثقافات الأصلية للشعوب وجعل حامليها عرضة للشعور بالنقص أمام الثقافات الغربية. وعليه تأتي أهمية العناية بالموروث الشعبي حماية للهوية الثقافية والأسس الحضارية، وإثراء للواقع المجتمعي الثقافي فنياً وعلمياً .

زادت في الآونة الأخيرة الأهمية العلمية للتراث الشعبي وعناصره المختلفة وبما فيها من إبداع يتسم بالتقليدية والتنوع مادة جاذبة للسياحة سواء الداخلية أم الخارجية. وتشابكت عناصر مقومات الموروث الشعبي لتصبح ماده علمية تدرس في برامج كليات السياحة والفندقة، وفي أقسام الترويح بكليات التربية الرياضية، هذا إلى جانب رسوخ بعض التخصصات العلمية في تناولها وتعاطيها بعناصر التراث الشعبي باعتبارها مقومات جاذبة للسياحة كمراكز الفنون وأقسام الانثروبولوجيا.

وقد ساعد هذا التوجه كثيراً من الشعوب لتطلق العنان لفنانيها ومبدعيها للتعبير من خلال عروض الفنون الشعبية عن الطابع القومي الوطني لشعوبهم، فأصبحت المادة الفلكلورية المقدمة من العوامل المنشطة للسياحة في كثير من الأقاليم والبلدان والشعوب ويمكن القول أن مصر وما تزخر به من ثقافات شعبية تميز أقاليمها الجغرافية المحلية وما يتسم به سكان تلك الأقاليم من ثقافات فرعية ذات طابع شعبي إقليمي يتسم بالفنون التقليدية والتعابير الرمزية عن الوجدان الداخلي وما يتسم به طابع الشخصية القومية في تكاملها وفي تميزها، وتعد الفنون الشعبية والحرف التقليدية وإقامة المعارض الدائمة والمهرجانات الشعبية الموسمية من أهم معالم التعبير الشعبي ومادة فلكلورية جاذبة للسياحة .

المأثور الشعبي في مصر ..

ما من شك أن النصف الأول من القرن العشرين قد شهد تحولاً واضحاً في الإهتمام بالموروث والمأثورات الشعبية (الفلكلور) في مصر وقد جاء هذا الإهتمام نتيجة عدة اعتبارات من أهمها ما يلي :

١- دخول تحولات كثيرة على مسارات العلوم الاجتماعية والإنسانية سواء في مصر أو في خارجها فامتزجت تلك الدراسات في مجالات علمية وعملية كانت بداياتها حديثاً في مصر مقترنة بجهود بعض علماء الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨- ١٨٠١) اللذين سارعوا في وقت قصير نسبياً برصد بعض مظاهر الحياة الشعبية في مصر جنباً إلي جنب مع اكتشاف الحضارة المصرية القديمة وتقديمها للعالم في صورة منهجية ومنها على سبيل المثال فك رموز الكتابة الهيروغليفية المدونة على حجر رشيد وبعدها توالت الجهود البحثية والعلمية في النطاقين الحضاري والثقافي والشعبي الموروث والحي.

٢- جاء الإهتمام بالموروث من المأثور الشعبي متزامناً مع إنشاء ودخول الدراسات الجامعية في مصر منذ أوائل القرن العشرين، حيث أسهمت الجامعات في اقتحام مجالات التراث والفنون الشعبية

الشفاهية والأدب الشعبي وقد عزز هذا التوجه جهود بعض المفكرين والمثقفين المصريين أمثال طه حسين وعباس العقاد وأمين الخولي ومن جاء من بعدهم بجهود واضحة أسهمت في الرغبة بتسجيل المأثور والإهتمام به. وهي جهود أساسية وجوهرية لا زالت تؤدي دورها ووظيفتها حتى الآن وبكثافة عالية حرصاً على بقاء الموروث من الإندثار أو الفناء (١٣) .

٣- إنشاء ووضع برامج دراسية بالجامعات تهتم بالتسجيل الحي لعناصر المأثور الشعبي والتراث المادي والتراث الشفاهي وهي البرامج التي تمثلت في دراسات الأدب الشعبي، والانثروبولوجيا والفلكلور والفنون الشعبية والفنون الجميلة والتاريخ الاجتماعي للمصريين فكان إنشاء مركز الفنون الشعبية، وبرامج دراسية وشعب دراسية تحول بعضها إلى أقسام مثل دخول دراسات الأدب الشعبي في قسم اللغة العربية بآداب القاهرة ١٩٥٨م وقسم الانثروبولوجيا بجامعة الإسكندرية ١٩٧٤م والذي أصبح يضم إلى جانب الدراسات الانثروبولوجية شعبة التراث والمتاحف الشعبية كتخصص مستقل وبرنامج علمي يعتمد على المسح الميداني لبعض عناصر التراث الشعبي في شتى المجالات والثقافات المحلية، وربط تلك الدراسات والبحوث ونتائجها بما يعود على الشخصية المصرية من نفع عام في مجالات التنمية الاجتماعية والثقافية والترويج للسياحة باعتباره مقصداً رئيسياً من وراء تسويق الثقافة والفنون الشعبية بشتى مظاهرها وروافدها وعناصرها المختلفة. وجاءت أولى دفعات الخريجين من شعبة التراث والمتاحف بقسم الانثروبولوجيا بكلية الآداب جامعة الإسكندرية في مايو من عام ٢٠٠٨م. ومازال عطاؤها مستمراً بفضل أساتذة تخصصوا في الدراسات الانثروبولوجية الثقافية بصفة عامة، ودراسات الفلكلور والموروث الشعبي بصفة خاصة.

تأتي هذه الجهود في مجالات البحوث والدراسات الشعبية من منطلق المسئولية القومية والعلمية تجاه الحفاظ على عناصر ومكونات الطابع القومي المصري من جهة والطابع العربي من جهة أخرى، ومثل ما تتم جهود البحث والحفظ في مصر هناك جهود حثيثة في هذا المجال في كل من اليمن والعراق والكويت والإمارات بل وفي كافة الدول العربية. فضلاً عن تبادل الخبرات فيما بينها . ولم يقتصر تبادل الخبرات على المستوى الأكاديمي والبحثي، وإنما يقوم الإعلام بوسائله المختلفة- المصري والعربي- بدور هام في التوعية بأهمية المأثورات الشعبية حتى تتضاعف حماسة القائمين على عمليات التسجيل والتوثيق والأرشفة، كما تعمق وسائل الإعلام لدى الجماهير الإحساس لديهم بالمسئولية القومية والعلمية والإنسانية، ويستوجب ذلك بالضرورة سرعة الإلتقاء بين المعنيين بالمأثورات الشعبية العربية، فهي ضرورة تحتمها هذه المسئولية ووسيلة من وسائل الإلتقاء المنشود .

الثورة الرقمية والموروث الشعبي

يوجد فرق كبير بين تأسيس مجتمع المعلومات لاسيما العالمي وبين مجتمع المعرفة فقد يظن البعض من الباحثين والمهتمين أن مجتمع المعلومات ليس أكثر من تأسيس وإدراك البنية التحتية المعلوماتية ، ويتم ذلك – في نظر البعض – بالكلمة والرأي والشيء (المادة) وتأسيس الفكر اليومي

بشتى الطرق بما فيها وسائل التكنولوجيا مروراً بكافة معطياتها .. وانتهاءً بالثورة الرقمية ودورها في الإسهام في تأسيس مجتمع المعلومات .

ويمكن القول أن مجتمع المعلومات يتكون من مكونات أساسية حتى يصبح أو يصير مجتمعاً معلوماتياً نموذجياً لحضارة ما من الحضارات الإنسانية .. وتلك المكونات هي :

١- يلزم لقيام مجتمع المعلومات ، أن يكون المجتمع المقصود قد مر ويمر بمراحل من التاريخ الإنساني في المراحل التطورية المجتمعية (بدوية – ريفية – حضرية .. الخ) .

٢- أن تكون كل مرحلة من المراحل التي مر بها قد تميزت بنوع خاص من الاستخدامات التكنولوجية تتفق وطبيعة المجتمع ، وطبية المراحل الزمنية التي عاشها ويعيشها المجتمع بحضارته وإبداعاته بدءً من أدوات الفلاحة والزراعة وجمع المحاصيل .. الخ .

٣- مرت المجتمعات والحضارات باستخدامها تكنولوجيات متنوعة ومتعددة تواءمت مع كل مرحلة من مراحل الحياة فيها مثل تكنولوجيا الصيد ، وتكنولوجيا الزراعة ، وتكنولوجيا الصناعة ، وتكنولوجيا النقل ، وتكنولوجيا التعليم ، وتكنولوجيا الطب ، وتكنولوجيا الفضاء .. وصولاً ... إلي " تكنولوجيا المعلومات " .

وفي ضوء ما سبق _ اختصاراً _ من مكونات أساسية للمعلوماتية ، يمكن القول بأن مجتمع المعلومات يتميز ويتسم .. بما يلي (١٤) :

١- أن تصبح المعلومات عامة وموجودة وغير قابلة للاستهلاك أو التحول أو التجزئة و التفتت ، لأنها رصيد متراكم من التجميع والخبرات ، ساهم في تجميعها باحثون وخبراء وقام باستخدامها مواطنون وأناس عاديون .

٢- يتميز مجتمع معلومات الثورة الرقمية بأنه يلفظ " غير المؤكد " وغير ذي قيمة من المعلومات فقدرة الإنسانية علي الفرز والاختيار والاستخدام لا ترضى بما هو غير ذي قيمة ، فتصبح القرارات الجمعية فعالة ومؤثرة في رسوخ مجتمع المعلومات وصموده من عدمه .

٣- يتميز مجتمع المعلومات باستخدامه للعمل " الذهني " العقلي وبتسخير قدرات الذكاء للأفراد والجماعات وبالمعلومة المتفق علي رسوخها (كمعايير) مقننة ومحكمة على المستوى العالمي ، فتساعد المجتمعات الإنسانية على حل مشكلاتها ، فتصير الفرص مواتية لإبداع المعرفة ، وصياغة أنساق اجتماعية جديدة في الاقتصاد والبناء الاجتماعي والتطور الثقافي .

بهذه السمات والمميزات لمجتمع معلومات الثورة الرقمية يتحدد إطاره العام عبر المراحل الزمنية، وفي كل المجتمعات الإنسانية التي أسهمت وتساهم بقدر موفور من المعلومات الرقمية بما يلي :

١- أن معلومات الثورة الرقمية ستصبح رمزاً للمجتمع من خلال قدراتها على إنشاء بنية أساسية تحتية للمعلومات ، تقوم على الحواسب الآلية وشبكات المعلومات المتاحة للناس جميعاً ، سهلة الحصول عليها ، سهلة في الاستخدام ، وسهولة في استرجاع المعلومات الرقمية .

٢- أن صناعة المعلومات الرقمية ستفرض نفسها وتهيمن على كافة الأنشطة الحياتية اليومية بما فيها بنية الصناعة ذاتها في شتى المجالات الفنية والتطبيقية والمجتمعية .

٣- على سبيل المثال – لا الحصر – ستحقق ثورة المعلومات الرقمية اتساعاً في نظام المشاركة في الحياة اليومية بوجه عام والمشاركة السياسية بوجه خاص ، نظراً لما توفره ديمقراطية المشاركة في المعلومات من نهوض لذاتية الإدارة بالمعرفة ، حيث تكون الفرصة والظروف مواتية لتآلف العناصر الخلاقة القادرة على ضبط نوازع النفس البشرية والاتفاق حول ما هو بناء وفعال للصالح العام .

٤- من المفترض أن مجتمع تكنولوجيا المعلومات الرقمية سيغير من القيم الإنسانية التي ارتبطت طويلاً بقيم الاستهلاك المادي لكي تتحول إلي صياغة جديدة لقيم الإنجاز وتحقيق الأهداف . ولا شك أن ذلك سيؤدي إلي تشكيل جديد في نظم وأنساق الأبنية الاجتماعية المحلية ، وتتحول طوعاً إلي صياغات جديدة في نقاط مجتمعية بنائية مركزية جديدة ، يسودها التواؤم حول تحقيق الأهداف العامة ، لا بهدف التملك أو الاستحواذ .

٥- لا يتوقف مجتمع المعلومات الرقمية عند حد معين من الإنجاز أو من تراكم رصيد المعلوماتية ، وإنما يظل في حالة تقدم دائم ، وإبداع دائم ، حتى يتحقق بداخله حالة مجتمعية تسمى " إبداع المعرفة " التي هي عبارة عن مشاركة جماهيرية عريضة وفعالة يتشكل عن طريقها صياغة مجتمع المعلومات العام أو مجتمع المعلومات العالمي .

هنا ستكون المشاركة والإسهام في رصيد مجتمع المعلومات الرقمية العالمي بقدر ما تنتجه وتضيفه الكيانات المحلية للشعوب والمجتمعات وأبنيتها الاجتماعية والثقافية المتفاوتة وتستطيع بفضل إسهامها عن طريق العولمة **Globalization** باعتبارها روح الزمن النابض في مجتمع المعلومات ، وأن تشارك وتضيف إلي رصيد مجتمع المعلومات من خلال مشاركتها في عولمة المعلومات الرقمية وعولمة الثقافة ، في الوقت الذي يظل فيه السؤال الجوهري قائماً ومؤداه :

هل الثورة المعلوماتية الرقمية بما أنها ستجعل المعلومات الرقمية متاحة عالمياً سيكون هناك تأثير علي بنية وعناصر الثقافة الشعبية وموروثاتها في بيئاتها المحلية أم ستكون المشاركة المعلوماتية في الخصوصيات الثقافية وموروثاتها الشعبية مجرد تسجيل ورصد وتراكم معلوماتي علي شبكة مرئية للعامة والكافة من سكان الأرض ؟

وذلك في الوقت الذي تقوم فيه شبكات المعلومات الكونية باستخدامها للحواسب الآلية الرقمية والأقمار الصناعية إلي تحسين تبادل المعلومات ، وإثراء وتعميق الفهم حول قضايا كونية عامة وهامة في

ذات الوقت مثل التحول الاقتصادي ، والأزمات البيئية ، والانفجار السكاني ، وطغيان السلوك العشوائي مادياً ومعنوياً ، مخاطر الأسلحة الذرية والكيماوية ندرة ونضوب الموارد العامة .. الخ .

ويبقى السؤال الهام المرتبط بالموروث الشعبي لدى المجتمعات المحلية وما علاقته بكل من الثورة التكنولوجية و الثورة الإلكترونية الرقمية ؟

المعروف أن الموروث الشعبي من التراث المجتمعي الثقافي يمثل رافداً هاماً من روافد الموروث الحضاري للشعوب سواء كان مادياً أم معنوياً ، وبما أن ثورة صناعة المعلومات وثورة تكنولوجيا المعلومات قد أتاحت الفرصة أمام كافة الشعوب للمشاركة في تقديم ما لديها من أرصدة حضارية وثقافية ، وتقديم العون لها _ بواسطة الشبكات الدولية للتواصل المعرفي الرقمي _ فلم يعد لدى تلك الشعوب والمجتمعات عذر في التراخي وعدم المشاركة ، وعليها أن تقدم وتعرض ما لديها لتسجله وتضيفه إلي شبكة وبنك المعلومات الكوني وبأيسر وأقصر الطرق ، مضافاً إلي ذلك ما سيعود عليها من نفع معنوي ومادي جراء تلك المشاركة .

إلي جانب توفير قاعدة معلوماتية عريضة ميسرة على شبكة التواصل التكنولوجي الرقمي كونياً تختص بتقديم معلومات عن موضوعات وأنشطة متباينة ، فإن قطاع الثقافة وما يتضمنه من عناصر وإبداعات وتاريخ ونشاط وروافد متعددة تسهم في البنية الثقافية والموروث الحضاري للشعوب ، أصبح أمراً ملحاً لتصبح الثقافة والموروث الشعبي " منتجاً " حضارياً يقدم سكان المجتمعات المحلية أنفسهم للعالم ، وهنا يأتي دور المجتمع المحلي وإسهاماته المعلوماتية والتواؤم المحلي الجماهيري في التوافق المعرفي ، كي يقدم عناصر الموروث الثقافي في صورة " سلعة " أو سلع ثقافية حضارية لها شأنها ، وإسهامها في بناء الحالة الذهنية كمُصدر المعرفة أولاً ، وكمستقبلها من شتى الثقافات والشعوب ثانياً .

وتظل التساؤلات الملحة قائمة :

أولاً : هل مصر بما لديها من مخزون وموروث حضاري متنوع وبما لديها من كفاءات بشرية عاملة في قطاع تكنولوجيا المعلومات الرقمية ومجتمع المعرفة قادرة على أن تقدم نفسها بنفسها وبثقافتها أو ثقافاتها المتنوعة للعالم ؟

ثانياً : هل وصلت مصر إلي درجة مرضية في عمليات رصد وتوثيق ما لديها من عناصر حضارية موروثة ؟ والمستجدة منها بفضل إبداعات شعبها العريق زمنياً وحضارياً ؟

ثالثاً : هل يشعر المصريون خاصة الخبراء منهم بشئون رصد عناصر الموروث وتسجيله وأرشفته، بأنهم في حالة مرضية أم غير مرضية بسبب التأخر في تقديم التراث الوطني بالصورة التي يليق بها تقديم موروث مصر الحضاري للعالم ؟

رابعاً : إذا كان الماضي الزمني له ما يبرر حالته في عدم الاستفادة منه في تقديم مورثنا الحضاري بالصورة اللائقة ، فما هو " عذرنا " الآن ونحن نستخدم ونستعين ببساط العولمة وتكنولوجيتها الرقمية القادرة على حمل واستيعاب ما لا يمكن أن يتخيله أحد ؟ .

فاستخدام الثورة الرقمية ومدى أهميتها جعل استخداماته تتغلغل في كافة أنشطة الحياة الإنسانية، تلك الثورة الرقمية التي تغلغلت بنموذج ثقافي ناعم إلي أدق تفاصيل الحياة اليومية للشعوب والمجتمعات . وإذا كان استخدام الثورة الرقمية له أهميته في مجالات عدة فقد لخص ماكس مانوارينج Dr.Max G. Manwaring أستاذ الإستراتيجية العسكرية التابع للجيش الأمريكي ، أهمية الثورة الرقمية ، واستشهد بمثال ما أسماه " دولة الفيس بوك Facebook باعتبارها أحدث أشكال الجيل الرابع من الحروب ، والتي بواسطة استخدامها أمكن القضاء على أمم وتدمير كيانها البنائي دون إطلاق رصاصة واحدة ، أو إزهاق روح جندي واحد ، أو إنفاق لدولار واحد ، وإنما باستخدام الثورة الرقمية وتوجيهها ، و بالإمكان إنهاك شعب ، وخلق حالة لديه من " الإكراه " فينظر إلي دولته بأنها " دولة فاشلة " وتلك عملية اجتماعية – موجهة سواء كان التوجيه داخلياً أم خارجياً _ هدفها " زعزعة الاستقرار " ؟ . دون أن تكون هناك مواجهة حقيقية بين طرف وآخر ، وتلك ميزة ووظيفة ما عُرف مؤخراً بدولة ال " فيس بوك " وهي دولة أقوى من أي كيان رسمي دولي غيرها ، لا حدود لها !! لا نظام سياسي لها !! يملكها قائدها و أميرها وحاكمها هو " مديرها " أي مدير البرنامج ، لا دستور لها ، ولا قانون ، إلا دستور الخصوصية Privacy Policy لا جنسية لها ، ولا بطاقة هوية ، سوى بطاقة التعارف عندما تنشئ صفحتك Born وتسجل بها كل همسة تصدر عنك ؟ أدواتها الخاصة في مراقبتك ثلاث : ابدي إعجابك – شارك – علق ؟ Like .. Comment .. Share تلك الدولة الافتراضية الرقمية (الفيس بوك) لها كل الحقوق في معرفة أدق أمورنا الشخصية والعامة ، ولا أي حق لك عليها كأحد منتسبيها أو مواطنيها !! ؟

خـــاتمة

بعد هذا العرض يمكن القول أن الثورة الرقمية أصبحت متغلغلة في كافة نواحي الحياة اليومية من كل نواحيها ، وعليه يمكن للمهتمين بدراسة الموروث الشعبي بكل تفاصيله ودقائق أجزائه والساعين لرصده وتسجيله وأرشفته ، ومن ثم تقديمه للعالم في صورة أخرى ، أن يستعينوا في أعمالهم بما جاءت به الثورة الرقمية في نقل المعلومات المؤرشفة وتقديمها لمن يحتاج إليها أو علي الأقل تكون متاحة لمن يرغب . ولكي يتمكن الأنثروبولوجيون والإثنولوجيون والفولكلوريون والمهتمون بالموروث الشعبي ، فإنه يمكن القول أننا في حاجة إلي جهود بحثية وعلمية مخلصة تنبذ التمسك والدوران في فلك التخصصات العلمية الضيقة التي نشأوا عليها وتعلموا ودرسوا في نطاقها ، فلم يعد هناك مجال للتفرقة وإعلاء الذات داخل تخصصات بعينها على حساب تخصصات أخرى من جانب الباحثين والمهتمين ، بل ومن كبار الرواد ، فلم يعد موجوداً التفرقة بين ما هو أنثروبولوجي و إثنولوجي ، وبين ما هو فولكلور ومأثور شعبي ، حيث الخطوط العريضة في البحث للموضوعات المشتركة هي التي ستحدد طبيعة المشاركة ، كما أن هناك خطوطاً منهجية مشتركة لدراسة وبحث تلك الموضوعات .

فالتفرقة وإذكاء نظرة التفرد والتميز بين بعض العلوم الاجتماعية يراه المرحوم الدكتور أحمد أبوزيد أستاذ الأنثروبولوجيا بجامعة الإسكندرية ، أنه أشبه " بالتحايل " !! ؟ علي حد قوله ويضيف – على حد قوله – كما يفعل الأنثروبولوجيون والسوسيولوجيون لتمييز مجالات تخصصهم بأن يجعلوا من دراسة العلاقات والنظم والأنساق في المجتمع البدائي هو مجال الدراسة في الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، في حين يختص علم الاجتماع بدراسة الموضوعات ذاتها في المجتمع المتحضر الحديث ، وهو تميز – علي حد قوله – !! ؟ فيه كثير من التعسف والافتعال (١٥) .

وعن حرية الإبداع الشعبي وحدوده يمكن القول أن العقلية الشعبية لا يعوقها الزمان أو المكان عن إبراز النماذج والأهداف، فهي لا تهتم بالتواريخ، ولا تشغل نفسها بسياق الزمان والمكان، وإنما كل مرادها التطلع إلى ما هو جديد ومبتكر حتى وأن جاء في لمحة عين، والأهم أن يكون منتج الإبداع حامياً للإنسان وفضائله ومثله العليا ومحققاً تلاحم الإنسان مع وطنه ووطنيته فيصبح الإبداع في سياق قومي أصيل في شكله ومضمونه. وحتى في حالة تقديم بعض هذا المأثور فنياً (الفنون الشعبية) فلم يكن الغرض بقصد التسلية والترفية والترويح عن النفوس المكدودة بعد عمل النهار الطويل . فالتسلية والترويح هي وظائف ثانوية، أما الوظيفة المحورية لعروض الفنون الشعبية فهي على الدوام تستدعى وتتطلب المحافظة على ذات الفرد في أمنه ووطنه ، بل وتتطلب المحافظة على الجماعة كلها في آن واحد .

المراجع ومصادر البحث

(*) قدم هذا البحث إلي الملتقى الدولي للمأثورات الشعبية والتنوع الثقافي بالتعاون مع الجمعية المصرية للمأثورات الشعبية وأرشيف الحياة والمأثورات الشعبية ١٥ – ١٧ ديسمبر ٢٠١٤ م القاهرة .

١– المجلس الأعلى للثقافة ، وزارة الثقافة مصر ، المأثورات الشعبية والتنوع الثقافي ، سلسلة أبحاث المؤتمرات ، الجزء الثاني ، القاهرة ، ٢٠٠٩ م ص ٥

٢– البنك الدولي ، تقرير التنمية البشرية : الموارد البشرية – الجوانب التربوية ، ٢٠٠٥ م ص ١٦٣ .

3– Malinowski , B., The scintefic Theory of culture , Oxford University Press . London , 1949 . p. 33

4– Philips,Ph & Willey ,G.R, Method and Theory in American Archaeology : An Operational Basis for Culture , Historical Integration , American Anthropologist Vol. 55 , No. 5 , 1953 .

5– Taylor , E., B., Primitive Culture , Fifth Edition , London , 1913, p. 3 .

٦– محمد عباس إبراهيم ، الثقافة الشعبية : الثبات والتغير ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ٢٠١٣ م ، ص ٢٠ .

7– Kroeber , Alfred , Anthropology Today , Chicago University press , 1953, pp. 588– 589 .

8– Cowell, F., & A., Richards , Culture in private and public Life , Thomas and Hudson , London , 1959 . pp. 230 – 240 .

9– Kroeber , A.L,& Kluckhohn ,c. , Culture : A critical review of concept and definitions, in, of education , American Book Company N. y. 1968, pp. 69 – 74

١٠– محمد ثابت الفندي ، الفولكلور في ضوء علم الاجتماع : محاولة في المناهج ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، المجلد السادس و السابع ، ١٩٥٢ – ١٩٥٣ م ص٢

١١– أحمد بشارة ، قارئ المستقبل : في مستقبل الثورة الرقمية ، العرب والتحدي القادم ، تأليف نخبة من الكتاب ، كتاب العربي ، رقم ٥٥ ، ١٥ يناير ٢٠٠٤ م ص ٧٨ – ٨١

١٢- عبد الحميد يونس ، دفاع عن الفولكلور ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، ص ٤١ .

١٣- عبد الحميد يونس ، نفس المرجع السابق ، ص ٢٣ – ٢٥

١٤- السيد ياسين ، مجتمع المعلومات العالمي ، جريدة الأهرام اليومي ، ٢٧- ١١- ٢٠١٤ م ص ١٢ ، قضايا وأراء ، السنة ١٣٩ ، العدد ٤٦٧٤٢ .

١٥- أحمد أبوزيد ، تقديم ، قاموس مصطلحات الإثنولوجيا والفولكلور ، تأليف أيكه هولتكرانس ، ترجمة محمد الجوهري وحسن الشامي ، دار المعارف ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٢ م .